# الطريق المرسوم

بقلم
صوفي عبد الله

كان صوت جهاز راديو بعيد ، عبر الشارع يطن من اذنيها ، وهي تسمع سؤاله .. وتلقي تحديق نظراته القوية ، كأنه يريد ان يصب عليها كل مافيه من تيار مغناطيسي ...

وقاومت اضطرابها وراح عقلها يصب اللعنات على اولئك المخترعين المغفلين الذين اضاعوا وقتهم في ابتكار اجهزة بطولية تافهة ، ولم يفكروا في اختراع نافع جدا ولازم جدا ، انه الاختراع الوحيد الذي تشعر بلزومه لها في هذه الساعة بالذات ، وكل مسكينة في موقفها من يشاء حواء . ولا بد ان هناك مائة مليون مسكينة مثلها في مثل موقفها هذا من صادح لاسماء آدم الحمارين يشعرون هذا المثل امامها يصب عليها كل تيار نظراته المضطرمة العارمة ، التي تثير في اعماق كيانها الضعيف اعتى البراكين ...

لماذا لم يشغل هؤلاء المخترعة انفسهم باختراع اهم الف مليون مرة من الراديو والتليفزيون ؟ اختراع « ترانزستور » بطارية صغيرة جدا يضيء نورا احمر او اصفر او اخضر كأنوار علامات المرور لتعرف المرأة هل المرور ممكن ، او خطر او بين بين .. جهاز صغير كهذا يكشف عما في قلب آدم وعقله نحو المسكينة التي يصب عليها سحره الطاغي .. فتعرف هل هو صادق .. أم يغرر بها .

وتذكرت شيئا آخر تعرفت .. تذكرت ان هذا الجهاز الترانزستور لو اتيح لكل الناس ، فماذا يكون موقفها حين يسلط روحها هذا الجهاز على عقلها ...

كلا ! يجب ان يكون هذا الاختراع الثمين وقفا وحكرا عليها هي فقط ... آه يارب لو استطاعت فقط ان تعرف !

وعاد عليها سؤاله ، وهو يصب فيها تيار نظراته فيسحق عقلها وارادتها سحقا وهي تتماسك :

— لا ادري لماذا تصرين دائما على تعذيبي ؟ .

واخذت عيناها تتفحصه في توجس فرغم حزنه الحزين وملامح وجهه المتقلصة ، لم تستطع ان تكون فكرة واضحة عما يكنه في دخيلة نفسه ' هل هو صادق حقا ، ام يمازح ويلعب بها ؟ .. اترى حقا يحبها ام يريد ان يستشف طوايا نفسها ؟ ان نفسها حساسة كالاحساس ... تحسها

كالبركان على وشـــك الانفجار ... لا تدري في اي لحظة سيفلت منهـا زمامها .. ربما الآن ... فورا ... او بعد دقيقة .. او ربما تستطيع التحكم ويمر الموقف بسلام وتتغلب على نفسها ... الله اعلم... اما اذا تغلب هو وسلم سيد الموقف ... رباه ! .. لن نفسها تفلت منهـا فتعربد وترتكب من الافعال مالا تحسن ان تواجه به هذه النفس اذا عادت الى حالتهـــا الطبيعية !..

حالتها الطبيعية ؟!

اذن هي لا ترتكب هذه الافعال وهي في وعيها !.

احقا ان داخـــل النفس البشرية شخصيتان متعارضتان كل التعارض ، هما : الخـير والشر ؟ اتكون الشـــخصية الشريرة هي التي تستحوذ عليها وتشل تفكيرها الطبيعي وتجعـل يدور الشر الكامنة تتشعب كالاخطبوط فتمتص كل ما حولها وتعيث فسـادا دون اي رادع من الشخصية الاخرى المستقيمة لها ؟!

ان سلطانه قوي الآن ، في هـذه اللحظة بالذات من ان يدعها تفكر ، فقد احست بجيشان عواطفهـا تثور وتملأ جسمها ثم يرتد الى لسانها اسـمه الحبيب فاذا به يقفز الى شفتيهـا فتهمس به في نشوة .. فيمد لها يده المرتجفة فتعود تتغلغل شعرها بأصابعه الاذى وتلاقي العيـون في نظرة صامتة حافلة تزلزل جسمهـا كله ...

منذ عام عرفته كان صديقا لزوجها احضره ذات يوم الى البيت لتنـــاول طعام الغداء ، وقدمه اليها وهو متهلل بعودة صـــديق طفولته من الخـــارج . وكانت جلسة ممتعة تخللتهـا ذكريات الطفولة العذبة واطوار الشباب وما مر بهما ، وقص عاطف على صديقه زوجها ما مر به في حياته ، ومأســـاة حبه ، وهربه الى الخـــارج بقلبه الجريح ، وعزوفه عن المرأة والزواج بعد ذلك . وحاول زوجهـا ان يثنيه عن عزمه ، صارحا بها ويحدثها وحبها واخلاصها اكثر مثـل يخص مكرته ، واذا كانت امرأة قد خانت عهـوده ، فليس معنى ذلك ان كل النساء سواء ...

واغمض عاطف ، لم يجـر جوابا .. ولكن سحابة حزن رانت على الموقف ، فاسرع زوجهـا يدير دفة الحديث الى ظروف العمل والطقس ودخلت ابنتهما في هذه اللحظة بمرحها الصباحي مع دادتها ، وراحت تتقافز ، وساد البيت مرح جميل بدخول الطفلة اللطيفة ..

اما هي فلم تستطع حتى الموقف ان يتفرغ من نفسها احتلهـا بالرثاء لهذا الشاب الفارع الوسيم وراحت تختلس اليه النظر وهو يداعب طفلتها في حنان واشفاق شديدين ...

وتعددت زيارات عاطف للبيت ، واصبح يدخل ويخرج في اي سـاعة يريدها بعـــد ما اعطاه الزوج مطلق الحرية والثقة فساعده ذلك في ابعاد روح الكآبة عن صـديقه العزيز ... واشعاره بحو العـائلة الدافيء ليعيد اليه ثقته بأن هناك نساء فاضلات ...

ولم تكن سهير بأقل رعاية من زوجها في ادخال السرور على قلب عاطف . ولما كانت متزوجة منذ ست سنوات ، ولم تنجب سوى هذه الطفلة ، لان مانعا

الم بها بعد ولادتهـــا قرر الاطباء انه سيزول بمرور الزمن ، ولكن السنوات مرت ، وهي مي شوق ملح للاطفال ، مما جعل الفراغ يلون حياتها، ولم ينلح حب زوجها وحدبه في ملء حياتها لان آمالها الكثيرة كانت تعوقه عن مرافقتهـــا الى امكنة اللهو والنزهات ، مانطوت على نفسها تجتر آلامها في صـــمت حتى لا ترمح زوجها وتسبب له خيبة امل في العش الهنيء الـذي بناه وزوده بكل مريح وجديد ليسـعدها ويدخل على قلبها السرور ...

وبمرور الأيام احست سمير ان وجود عاطف معها قد فجر فيها ينابيع شبابها بعد ركود .. وفي كل مرة يجلس اليها تكتشف فيه اشياء افتقدتها في زوجها وارتاحت اليه واصبحت تحس بوحشة لغيابه ، وشعر هو بنوادر استطلافها له فراح يتقرب منها ويرمي شـــباكه حولها !..

وذات يوم ، وقـد انفردا في البيت انتظارا لعودة زوجهـا من عمـــله ، كان هذا الموقف الذي قلب حياتها رأسا على عقب ، فقـد راح يلقي في اذنيها كلمات الحب والهيام ، وما ان احست ان الموقف سيفلت من يدها وقد تملكتهـا نشوة كانت ان تدمع بها بين احضانه ونسيت كل شيء الا صوت نداء يصرخ في اعماقها .. في هـــذه اللحظة بالذات سمع صوت اقدام زوجها فوق الدرج ، فعادت اليها حواسها المستيقظة، وفي لمح البصر نطلت على مواطنهـا واخذت سمتها الطبيعي ...

* * *

لماذا تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك؟

اليوم لا تدري ولا تدري ايضـــا اذا اتيحت لها مثل هذه الفرصة هل كانت تستميد الذي فعلت أو تحجم عنه انها ستستسلم للحظتها ولا تفكـر فيما يكون بعد ذلك وهذا — للاسف — عيبها الذي مشلت في التغلب عليه مهما قاومت!. وكان زوجها يعلم فيها هذا الضـــعف لذا حرص ان يجنبها الوقوع فيه دون ان يعتنت على حريتها حتى لايقوى فيها هذه الرغبة وهو يعلم ان كـــل ممنوع مرغوب ...

ولم يمت عليه الاستطلاف الذي بينها وبين صديقه — وخوفا من ان تحـدث كارثة احس بوادرها في عش زوجته. ولم يكن يخفى عليه ما تدبره — مهما فعلت — اذا مه يترك كبرياءه جانبا ، ويعانقها عناقا قاسيا لحركات بدرت منها ومن عاطف — لم تحسن عليهـا — يطلب منها في حزم ولكن في رفق ، ان تتحكم في عواطفهـا ، ولا تندفع وراء نزواتها ، وسينقطع هو علاقته نهـائيا بهـــذا الذي كان يعتبره يوما اعز اصدقائه ..

وشـــعرت بكلمات زوجها كلمعة تصلحي احشائها ، خصوصا وهي تقسم له انه لايوجد بينها وبينه اي شيء تلام عليه ! كانت تعلم انها تكذب وان ثمـرة خطيئتها تلوى في احشائها تلهثهـــا بالتماس دمائها ، وان الامـر قد خرج نهائيا من يدها ، ولم يبق غير ايام لتفاجـــا بجريمهـا ماثلة امام عينيها ! ..

نعم انها فعلت كل صلة لها به بعد هذا الحادث ولكن شعور موجع كئيب لازمها لعظم الذنب الذي ارتكبته في حق نفسها وزوجهـا وودت لو تطهر

الجنين وتريده ميتا قبل ان يخرج الى الوجود ، وتدفن معه عارها وسرها الذى سيصبح بعد ولادته عليا على رءوس الاشهاد ! ..

شيئا واحدا كان يريح افكارها المكتئبة ويومض شعاعا من الامل فى نفسها لايجعلها تتارجح بين الشك واليقين :

لماذا لا يكون المولود ابن زوجها ؟.. الا يمكن ان يكون حملها جاء نتيجة حالتها النفسية وهى تحس انها محبوبة بشغف من رجلين فى آن واحد ؟ ..

لكن القدر كان يدخر لها فى جعبته عقابا طالما انها تستطيع الافلات منه ، واذا المولود صورة طبق الاصل من عاطف ...

رباه ! اى مصيبة حلت بها ، اى كارثة ستحطم حياتها ! اى عار سيلحق باسمها ... لقد فقدت كل شىء .. فقدت نفسها اولا ، وستفقد زوجها وبيتها والحياة الناعمة والامنة الجميلة . لقد تحسبت لها شناعة الموقف بعدما انجلت العاصفة واحست انها سقطت من شاهق الى الحضيض حيث الخزى والعار والشنار ...

وكرهت الطفل ، كرهته من كل قلبها ! .. كانت ترتعد فى جزع كلما تدنوه اليها لترضعه ، فتحسه ثعبانا يهش نديها . ! وتود لو تصرخ من اعماقها ان يبتعدوه عنها . والناس اليها مهنئين بعد ما انقطع الامل فى انجابها مرة ثانية ! ..

انها تحاول ان تتماسك وتقبل عليه كيلا يفتضح امرها ، رغم ان الامومة ملصت من قلبها وكأنما لا تربطها بهذا الوليد اى علاقة ، ففيه يتجسم عارها وبوجوده يظل كالسيف المسلط على عنقها ...

كانت ترتعد وتتيبس اطرافها كلما رات زوجها يلاطفه ويقبله ويتفحصه بعينيه . فهو اول من يدرك الشبه الذى بينه وبين عاطف ، بعد الشك الذى اساءه من علاقتهما ..

ترى هل يساورها يوما بعد الاتهام ؟. لا يظن ... فزوجها عاقل حليم ، ولكنها لم تجربه فى مثل هذا الموقف .... وهذا الطفل ، جميلا ذكيا لطيفا .. يتدفق صحة ، ومع نموه كل يوم علمها ومع كل حركة والتفاتة منه كان رعبها يتضخم . مطيرات عينيه وتكوين جسمه، صورة لاتخطئها العين لشريكها فى الجريمة ..

الم يلحظ ذلك زوجها ؟! ربما نعم ، وربما ايضا لا ، فلم تظهر عليه اى بادرة تنم عن شكله ... ولم يفاتحها فى امر عاطف بعد ذلك اليوم يوم العقاب ...

كل صوت صغير يؤرقها .... !

كان لابتركها لحظة هادئة هذا الصغير . كان عذابه اشد من عذاب الجحيم اذا كان هناك حقا جحيم ....

وكلما حاولت ان تحاذق امامها عذرا ، كلما حاولت ان تنمى بنفسه الطفل الآخر ... تجد دليلا يؤكد عدم اتصاله بالروح . فينهار كل امل للصلح مع نفسها ...

وساءت صحتها واشتاتها الهواجس، وصارت ملازمها فى ليلها واثناء النهار ،

وقررت في النهاية ان تهمل الطفل حتى تسوء صحته ويموت ...

لكنها لم تستطع . كان قلبها يترف وهي تراه بعد لها يدا صغيرة بضة ملهفة الى صدرها .. تقبل عليه تلتمه ثديها ودموعها تنهمر غزيرة فوق الوجه الملائكي ، وتذوب كراهتها له ويحل محلها اشفاق مرير لوضعه منها ...

وثارت كوابن الاثرة في نفسها بعد عذاب اوشك ان يصل بها الى الجنون . وراحت تجادل نفسها :

كيف يمكن ان تستسلم لهذه الافكار المريضة ؟ . كيف ترضى بهذا العذاب الذي يشقيها ويحيل حياتها الى شقاء ؟ . اهي المرأة الوحيدة في ساعة ضعف؟! كم من امرأة ارتكبت اضعاف اضعاف خطيئته ويعشن هادئات ناعمات يتمتعن بحب ازواجهن وثقتهم ! . لماذا تترك نفسها فريسة للانهيار وقد انقطعت عن هذا الرجل منذ اليوم الذي خلفت لزوجها الا تراه ، وعاشت حياتها الفضيلة والاخلاص لزوجها ؟ .. لماذا لماذا !؟

وبحسها صوت من اعماقها مزمجرا هازئا :

اذا سقطت المرأة مرة واحدة في حياتها لا يمكنها ان تعيش عيشة الفضيلة بعد ذلك ابدا . لا تخدعي نفسك ...

هراء . لقد سقطت وعلمت ، واصبحت بعد ذلك اليوم امرأة اخرى ، حتى انها تنظر الى ما يدر منها وتعجب كان امسه شقية غيرها هي التي فعلته لا يمت لها بصلة ....

وجاء مرض الطفل ، اصيب بالتهاب رئوي حاد ، وكتب له الطبيب عديدا من الادوية ، بعضها كل ثلاث ساعات ، والبعض الآخر كل ست ساعات ، وشدد في المحافظة على المواعيد ، نهارا وليلا ، فالخطر كامن في التهاون او الاهمال .

وبدأت في تنفيذ التعليمات بدقة .. وسيت احقادها كلها ، ومر النهار وهي على حال من القلق والتوجس والانفعال ، وهي تستمع لحشرجة انفاس الطفل تتردد في انحاء الحجرة مبينا انه يأتيها خافتا ، وقد التهبت وجنتاه بحمرة قاتلة ، واسبل جفنيه في استسلام عجيب ...

ورجعت جيوش الظلام تطبق على الحجرة الصغيرة ، والطفل المستسلم والأم الساهرة بجانبه ، وانتشر السكون في البيت كله ، فالأب يرقد في الحجرة المجاورة مع أسته ، والخادم في المطبخ ...

ومر الوقت ثقيلا بطيئا ، وهي جالسة بجوار الفراش ويدها على خدها ، وعيناها على وجه الطفل في شرود ساهم .

وسبحت افكارها بعيدا ، وعانقت عيناها في عمه من الخيالات والاحداث ، واختلطت عليها المرئيات ، واذا بالطفل يتمثل لها رجلا ، واذا ما تحدث بينها وبين هذا الرجل يتراءى امامها في صورة واضحة ليس فيها لبس ..

وتتململ في جلستها ، والحوادث

تراءى لها كشريط سينمائي ، وتتعاقب بدور الشر الكامنة في اعماقها وتصبح بها !

اتركي الطفل دون دواء . سيموت ميتة طبيعية . لن يلحق بك اي شك . . انها فرصتك الوحيدة ...

وتصلب برعشة حادة ، وتمتع عينيها بدموعة لتصطدم بتباشير الفجر تاخذ طريقها الى الحجرة الصغيرة الساكنة من خلف زجاج النافذة . . وطار عصفور واصطدم بالزجاج المغلق ثم ولى هاربا في ذعر . وقامت كالمسوعة تنظر في ساعتها ثم الى وليدها ، وشهقت شهقة مروعة .

كل جثة هامدة ....

مات الصغير قبل ان تسعفه بالدواء ! . .

وانكفأت على الجثة الصغيرة تبكي بحرقة ... وسقط ثار تلسع قلبها ، وانتفضت اعضاء جسمها جلمدوه من بين يديها عنوة ليدهبوا به الى مقره الاخير ...

وحينما افاقت احست كأن شيئا من البرودة او الهدوء العلوي يسري في اعضاء جسمها شيئا ، ولم تستطع الى البكاء سبيلا ، كأنما استكنت آلامها كلها وازيح عنها ثقيل من كاهلها ، وشعرت بخفة وانطلاق . . !

* * *

وحار الناس في امرها ، لما يرونه فيها من رزانة وعقل وعزوف عن البكاء لا يتفق مع تحرقها الذي الطوال الى طفل ومن يدري ربما لا تحب سواه ، وكانوا يهزون رؤوسهم متعجبين لقدرتها على ضبط اعصابها !

ولا تعدم متحدثا من المتحذلقين باستنباط الحكم من الاحداث الجارية ، فهز راسه هزة العالم وهو يقول :

ـ حقا ليست المرة بالصلاة والصوم ، فهذه المراة لا تصلي ولا تصوم ، ولكن لاشك ان جذوة الايمان التي في سريرتها حية متوقدة ، والا لما استطاعت ان تجد هذه السرعة العزاء والسلوان ...

وتهز هي راسها وصوت جهاز راديو بعيد يطن في اذنها عبر الشارع ...

ويمضي كل شيء في طريقه المرسوم